



زارني بالمدينة التعليمية في الدوحة مؤخراً اثنان من الدبلوماسيين الأميركيين المهتمين بالتحولات السياسية في المنطقة العربية، وكان لنا حوارٌ طويل حول قضايا الدين والدولة، والمسألة الطائفية، والربيع العربي، والعلاقات العربية الأميركيّة.

حاولت في اللقاء أن أفهم ضيفي الأميركيين أنَّ المنطقة يتنازعها اليوم مذهبان متناقضان في العلاقة بأميركا رغم أنَّ أتباع كلِّ منهما تربطهم صلات إستراتيجية بالولايات المتحدة: المذهب الذي يحرص على أن تنسجم المصالح الأميركيّة مع مصالح الشعوب، وتتبّعُ هذا المذهب قطر وتركيا وجل القوى السياسيّة الساعية إلى الإصلاح والتغيير، بما فيها الحركات الإسلاميّة الديمقراطيّة.

والمذهب الذي يريد أن تبقى المصالح الأميركيّة منسجمة مع مصالح الحكام ضدَّ الشعوب، وهو المذهب الذي تتبناه دول الثورة المضادة في العالم العربي، وقد تبنت إيران هذا المذهب مؤخراً في غمرة سعيها للتصالح مع أميركا بأي ثمن، وانسياقها مع غرور القوة وجهالات الطائفية.

أما المذهب الأول فقد ابني على موقف أخلاقي مبدئي، وهو منطلق من فهم عميق للتحول الذي تمر به المنطقة منذ انبلاج فجر الربيع العربي، وقد وصف رئيس الوزراء التركي أحمد داود أوغلو الربيع العربي بأنه "تدفق طبيعي لحركة التاريخ"، وهذا توصيف دقيق يدرك صاحبه -بحق- أنَّ ما نشهده اليوم تحولٌ تاريخي لا مردّ له، وأنَّ أي تعويقٌ الأميركي له لن يزيد على رفع الثمن الذي تدفعه الشعوب من الدماء والأموال، وتعزيز الفجوة بين أميركا والشعوب، مع خسارة أميركا وحلفائها المستبدّين، ورجحان كفة الشعوب في نهاية المطاف.

أما المذهب الثاني فهو تشبث بالمعادلة العتيقة القائلة بـ«لسان الحال لقادة القوى الدولية» «اهتموا بــنا ونحن سنقيكم شرّ شعوبنا، فهـي شعوب ستظل تعاديكم، ومن الخـير لكم ألا تنفك من قيدهـا، فـنحن القـيد وأـنتم القـادة»!! وهي معادلة جربـها الغـربـيون وعملـوا بـمقتضـاها مـنـذـ أن رـحل استـعمـارـهم العـسـكريـ، وـحل محلـه استـعمـارـ سيـاسـيـ تـغـذـيه وـتحـميـه أـيـادـ محلـيةـ، ولكنـ هذهـ المعـادـلةـ أـصـبـحـتـ الـيـوـمـ جـزـءـاـ مـنـ الـماـضـيـ، وـلاـ مـكـانـ لهاـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ.

فالحالة البركانية السائدة في العالم العربي لا يمكن احتواها ضمن معادلات إستراتيجية مهترئة، تجاوزها وعي الشعوب، واحترامها لذاتها، واستعدادها للتضحية في سبيل حريتها وكرامتها ومكانتها بين الأمم.

ثم ختمت حديثي مع ضيفي الأميركيين بأن على الولايات المتحدة أن تختار بين رؤية الماضي القائمة على التبعية، وهي رؤية تجاوزتها حركة التاريخ، وبين رؤية المستقبل القائمة على الندية، وهي توفر لها مصالحها على المدى البعيد، وتسهل عليها التصالح مع أمة العرب من المحيط إلى الخليج، ومع خمس البشرية الذي يدين بدين الإسلام.

ولست أدرى بالطبع ما إن كانت الرسالة وصلت، ولا مدى تأثير زينك الدبلوماسيين الشابين في صياغة الخيارات الأميركية في البلدان العربية، لكن الحرب الأميركية المطلة على المنطقة – باسم تصفية تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) – لا تبشر بأن الأميركيين قد غيروا تفكيرهم حول المنطقة حتى الآن.

بل الذي يبدو جلياً هو أنّ شيئاً ما يسحب الأميركيين لغزو هذه المنطقة عسكرياً كل عقد من الزمان تقريباً، فهذه الحرب المطلة علينا الآن في ختام عام 2014 ستكون الحرب الأميركيّة الثالثة في المنطقة خلال أقل من ربع قرن بعد غزو العراق الثاني عام 2003، وغزوه الأول عام 1991، وإذا تكررت الحادثة في الظروف نفسها فذلك يدل على أنها أصبحت ظاهرة وقاعدة مطردة كما يقول الفيزيائيون.

وعلى عكس الغزو الأميركي للإيابان وألمانيا في ختام الحرب العالمية الثانية الذي انتهى ببناء معادلة جديدة دخلت بها الدولتان إلى عالم الدول الحرة المزدهرة، وتحررتا من الشوفينية القومية والوطنية التي أشعلت الحرب العالمية الثانية، وتحولتا إلى حليفين وثيقين لأميركا والغرب، فإنَّ الحروب الأميركيَّة في المنطقة العربية دائمًا ما تعمق الانسداد القائم، وترسخ الأسباب التي أدت إلى الحرب أصلًا، ثم تنتهي بآثار عكسيَّة تماماً، فلا هي تحفظ المصالح الأميركيَّة على المدى البعيد وتغنى الأميركيَّين عن حروب جديدة، ولا هي تبني في المنطقة شيئاً من التوازن القابل للحياة، وإنما تملؤها دماراً وخراباً، ودماءً ودموعاً.

فما هو السر يا ترى في هذه الفجوة الهائلة بين ثمرات الحروب الأمريكية في المنطقة العربية، وثمرات حروبها في ألمانيا واليابان؟

إن السبب الذي لا ريب فيه هو أن حروب أمريكا على ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية كانت حروباً ضد حكام ونخب سياسية، ولم تكن حروباً ضد شعوب.

لقد أخذت أميركا الشعدين الألماني والياباني في الاعتبار وهي تحارب حكامهما، فرغم الفظاعات الأميركيّة أثناء الحرب - وأبشعها استخدام السلاح النووي ضد هiroshima وnakaZaki - فإنّ أميركا لم تسع إلى إذلال الشعدين الألماني والياباني بعد الهزيمة العسكريّة، ولم تحرّض على إيقاعهما تحت نير الاستبداد أو الاحتلال، أو وضعهما في حالة يأس مشحونة بروح الانتقام، بل ساعدت كلا الشعدين اقتصاديّاً على إعادة إعمار بلدיהם، والخروج بسرعة من محنّة الحرب، كما ساعدتهما سياسياً على بناء نظام ديمقراطي، فتركّت جيوشها الغازية للشعوبين حرية اختيار قادتهم وتقدير مصيرهما السياسي.

أما حروب الولايات المتحدة في المنطقة العربية فهي حروب على الشعوب، لا على الحكام، ولذلك جاءت نتائجها معاكسة تماماً لنتائج حربها على ألمانيا واليابان، فرغم أنّ صدام حسين انتهى معلقاً بحبس المشنقة فإن الشعب العراقي هو الذي دفع ثمن الحربين الأميركيتين على العراق: حصاراً اقتصادياً خانقاً قتل نصف مليون طفل عراقي بريء مع بقاء الدكتاتور في منصبه بعد الغزو الأول، ثم حلاً لجيش العراق وبثاً للفوضى في ربوعه بعد الغزو الثاني، وتميزاً للحمة المجتمع العراقي، وتسلیماً لزمام أمره إلى قوى طائفية تحركها أحقاد تاريخية وذاكرة موتيرة، ويهمنها الانتقام والتشفّي أكثر مما يهمها لم الشمل والبناء.

لقد شنت أميركا من اضطهاد الشيعة لتصبح مكانه من استباح دماء السنة، وقتلت من قصف الأكراد بالكيمايكي لتأتي بعده بمن يصف السنة بالبراميل المتفجرة، ولك أن تخيل لغاية المقارنة أن أميركا نصبت على ألمانيا بعد هزيمتها دكتاتوراً شوفينياً جديداً - مثل هتلر. لكنه يعمل لصالح السي آي آي، أو نصبت على اليابان دكتاتوراً عسكرياً ياباني الجنسية لكنه يأتمر بأمر وزير الدفاع الأميركي - كما يأتمر بأمره السياسي اليوم. فكيف كانت ستكون ردة فعل الألمان واليابانيين؟ وهل ستكون الحرب العالمية الثانية انتهت حقاً؟

إن حروب أميركا في البلاد العربية لا نهاية لها، لأنها حروب على الشعوب لا على الحكام، أما حروبها ضد ألمانيا واليابان وكانت حروباً على الحكام لا على الشعوب، ولذلك انتهت تلك الحرب بسلامة، بل استحال العداوة المزمنة بعدها صداقة راسخة.

وحيثما بدأ الربيع العربي - وهو ثورة شعبية ذات مطالب داخلية صرفة - ومطامح سياسية عادلة لم يرفع أهلها شعاراً يعادي أحداً غير الدكتاتوريين الممسكين بتلابيب الشعوب، بدأت أميركا إستراتيجية التعويق والاختراق فوراً، فأيدت الثورات بالقول وحاربتها بالفعل، واستنفرت لهذه الحرب على حرية الشعوب العربية كل قوى الظلام المرتبطة بها في المنطقة، من الضابط العسكري المرتهن لها إلى الحاكم المستبد الباطر، إلى الفقيه المتملق، إلى الدرويش الجبان، إلى الإعلامي المنافق.

وحتى حينما كانت الثورة على عسكري مشاغب ضد السياسات الأميركيية - مثل القذافي - سعت أميركا إلى إحلال اللواء خليفة حفتر محله، وهو رجل يجاهر الإعلام الأميركي بعمله لصالح السي آي آي منذ أكثر من عقدين، وكأن دماء الليبيين التي بذلوها مدرارة مجرد بساط أحمر للعملاء وفقراء الضمائر.

ومثل ذلك يقال عن مصر التي حولت أميركا ثورتها إلى مجرد انتقال للسلطة من دكتاتوري شائن موالي لها، إلى سفاح شاب أكثر ولاء لها على حساب دماء المصريين وأموالهم، وأمالهم وأحلامهم، وكرامتهم الإنسانية، ومكانة دولتهم بين الأمم، ثم سعت أميركا إلى تحويل مسار الثورات العربية في الدول التي لا تملك فيها عميلاً بديلاً - مثل سوريا - إلى مصهرة جهنمية، وحرب أبدية لا غالب فيها ولا مغلوب،وها هي صناعة تصبح آخر عواصم الربيع العربي سقطاً تحت مطارق حلفاء أميركا الذين أجهضوا الثورة اليمنية قبل اكتمال نموها الطبيعي، وألقوا بها خاجاً في أيدي الحوثيين وإيران.

لقد كان الموقف الروسي من الربيع العربي - على بشاعته وجهاته - أسهل وقعه على الثورات العربية من الموقف الأميركي، فأميركا يخالف قولها فعلها، وظاهرها باطنها في التعامل مع ثورات الشعوب العربية، أما روسيا فقد عصمتها عنجهيتها من النفاق، فأعلنت موقفها المعادي لحرية الشعوب العربية على رؤوس الأشهاد.

وهكذا تواجه الشعوب العربية الثائرة على الظلم والاستبداد عدواً روسياً ظاهراً، وعدواً أميركياً باطناً، والعدو الباطن أخطر، لما له من امتداد ونفوذ، وقدرة على المناورة، واستعمال للأدوات المحلية، ولذلك استحال الاستثمار الأميركي في الجيش

المصري دماءً وأجساداً محترقة في ميدان رابعة ومسجدها، واغتيالاً لحلم أحجار مصر وشبابها الفتى، كما استحالت علاقة خليفة حفتر بالسي آي إلى خراب في ليبيا، وسفك لدماء أبنائها، واستنزاف لثورتها وثروتها.

أما سوريا فقد أتبعت الولايات المتحدة فيها الرؤية الإسرائيلية التي عبر عنها المفكر الإستراتيجي الأميركي ذو الهوى الصهيوني ريتشارد لوتواك بصراحة لا لبس فيها، فقد نشر في 24 أغسطس/آب 2013 في صحيفة نيويورك تايمز مقالاً بعنوان "في سوريا: سخسر أميركا إذا كسب أي من الأطراف" يقول فيه "إن الاستنزاف الطويل الأمد في هذه المرحلة من الصراع هو المسار الوحيد الذي لا يضر المصالح الأميركيّة".

وختم المقال بنصيحة لصانع القرار الأميركي قال فيها "سلّحوا المتمردين كلما بدا أنّ قوات السيد الأسد في صعود، وأوقفوا دعمهم كلما بدا أنهم سيكسبون المعركة".

ولن تخرج الحرب الأميركيّة المرتقبة على داعش عن هذه المعادلة الجهنمية، بل ستسعى إلى إكمال حلقة الثورة المضادة عبر دمشق، وإلى حرمان الشعب السوري من جني ثمار تضحياته الجسمانيّة في سبيل الحرية والكرامة الإنسانية.

إن داعش ليس سوى عرض سطحي من أعراض مرض هيكلّي عميق في المجتمعات العربية هو الاستبداد السياسي وظهيره الدولي، فجوهر المسألة ليس إمكانية تدمير جماعة مثل داعش قد تتلاشى في بضعة أيام تحت القصف الأميركي كما تلاشى تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي تحت القصف الفرنسي، وإنما جوهر المسألة أن ترفع أميركا يدها عن المنطقة، وتكتف عن العبث بمسائر شعوبها والوصاية على قرارها الإستراتيجي، وتقبل بعلاقات ندية معها بدلاً من علاقات التبعية السائدة اليوم، وبذلك تستطيع المجتمعات العربية المترفة بالأمل والحيوية التخلص من الاستبداد، والتغلب على تناقضاتها الهيكلية المزمنة، وتحقيق شيء من الكرامة والمكانة لنفسها بين أمم الأرض.

ليس صحيحاً أنّ أميركا لا تستطيع فعل شيء لترجح كفة الحرية على الاستبداد في الدول العربية، فتنافس الدول العربية على الكتاب في الحملة الأميركيّة المرتقبة على داعش يكشف عن مدى الارتهان للخيارات الأميركيّة للمنطقة، وعمق الاختراق الإستراتيجي الأميركي لها.

والحق أنّ أميركا تستطيع أن تفعل الكثير في المنطقة، وهي تفعل الكثير بشكل مباشر وغير مباشر، لكنها اختارت الخيار الخطأ أخلاقياً وإستراتيجياً، واستمرت في العبث بمسائر الشعوب العربية والإسلامية، وضرب العرب والمسلمين في مكامن قوتهم المادية والمعنوية، وحرمانهم من الحرية والسلاح، وهم أهم دروع السيادة في الأمم المعاصرة.

ويعين أميركا في هذا المسار الجهنمي ساسة عرب لا يزالون يفكرون بمنطق قادة القوافل وأدلة الاستعمار في القرن الـ19، فهم "مثل شرذمة من القراءنة وقطاع الطرق تتغفل على قوافل الاستعمار في بلادها تعرض خدماتها" كما وصفهم -بحق- الدكتور عزمي بشارة في مقاله الأخير بصحيفة "العربي الجديد".

تستطيع الولايات المتحدة الاستمرار في العبث بمسائر شعوبنا من خلال التدخل العسكري كل عقد من الزمان، وتستطيع تعويق الربيع بضع سنين، وجعل شعوبنا تدفع ثمناً فادحاً من الدماء والأموال، وتحقيق بعض المكاسب التكتيكية الظرفية الخادعة من كل ذلك، لكن سياساتها الانتقائية الخالية من أي حسّ أخلاقي أو إنساني ستكون لها نتائجها العكسية الموجعة عاجلاً أو آجلاً، فلن تسلم أميركا من ارتدادات البركان العربي، ولن تسلم يدها من لهب الحريق الذي تغذيه في بلداننا كل يوم.

وهي في النهاية لن تستطيع وقف ذلك "التدفق الطبيعي لحركة التاريخ" الذي وصفه أحمد داود أوغلو، ولا التحكم في الحالة

أما قادة الثورة المضادة من الأعراب السائرين في ذلك أميركا فسيظلون على جهالاتهم حتى يدفعوا ثمن الأنانية السياسية، وعدم النظر في العواقب، وقطيعة الأرحام الدينية والقومية والإنسانية، وحسن الظن بأميركا، وقد قادهم كل ذلك إلى الغدر بالشعبين المصري والليبي، وخذلان الشعبين السوري والعراقي، والتأمر على الشعب اليمني، وهو أقرب تلك الشعوب رحمةً وداراً.

في كتابه "طلعات ومواقف: استكشاف العالم بعد 11 سبتمبر" يصف الصحفي الأميركي توماس فريدمان علاقة أميركا ببعض دول النفط العربية، فيقول: إننا نتعامل مع تلك الدول "باعتبارها محطة بنزين عملاقة يتم ضخها وحمايتها، دون أن نحسب لها أي حساب جدي باعتبارها مجتمعاً بشرياً".

وهو توصيف دقيق، لكن الجديد اليوم هو أن أميركا بدأت تحرق محطة البنزين العملاقة بعد أن استغفت عنها بالنفط الصخري، وهي ستتصبح أكبر منتج للنفط في العالم عام 2017، وكل ما تفعله أميركا اليوم هو المسارعة إلى استنزاف وتبديد وقود محطة البنزين العربية قبل أن يلتهمها الحرائق.

أما ملوك الطوائف من أدلة قوافل الاستعمار فهم لا يرون النار المحيطة بهم من كل جانب، ولن يروها إلا بعد أن تحل بمضاربهم، وتلتهم خيامهم، فهل ستستمر الشعوب العربية في السكوت على الضيم، أم ستأخذ على أيدي سفهائها الذين تخذلهم أميركا قفازاً وهي تعبث بمصائر الشعوب؟!

الجزيرة

المصادر: